

الإسلام ممارسا: تجديد النظر في معايير الدين

عكاشة بن مصطفى
باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

يدخل موضوع الدراسة في إطار علم الاجتماع الديني. ويأخذ كإطار له دراسة الظاهرة الدينية وخاصة العلاقة بين الدين والتدين وأنماطه، وهي دراسة نظرية تستعين ببحث ميداني أنجزناه في المغرب بالجهة الشرقية من دون أن تدعي أنها تحيط بموضوع التدين، لأن هذا يحتاج إلى عمل مجموعة فريق كامل في عدة دول.¹

يبرر هذه الدراسة أهمية وجود هذا العدد من الممارسات الدينية. كما أن الدراسات المتخصصة حول أنماط التدين في المجتمع العربي الإسلامي قليلة وصعبة، ولكن ذات أهمية كبرى. كما أن نمط التدين الممارس من طرف أغلبية المسلمين أضحى مناط انتقاد من طرف بعض الجماعات السلفية والإسلامية التي تريد كل واحدة منها تقديم نمط تدينها الذي تراه صحيحا وما عداه بدعة.

إشكالية الدراسة:

يشكل الدين عنصرا أساسيا لفهم الظواهر الاجتماعية، لأن المعتقدات الدينية موجودة في كل مجتمع. وقد أصبح علم الاجتماع الحالي واعيا بضرورة تجاوز علم الاجتماع التقليدي الذي كان يعلن عن اندثار الدين، باعتباره مرتبنا بمجتمعات تقليدية تقصيه متطلبات الحداثة. إلا أنه تبين أن الدين يسير جنبا إلى جنبا مع الحداثة. والأكثر من هذا، فإن التدين ظاهرة اجتماعية ودينية مستمرة مع مرور الزمن وموجودة في كل مجتمع حتى المجتمعات المتطورة. فالتقديس كما لاحظ دوركهايم لا يختفي في المجتمعات الحديثة، وإنما يتحول وينتقل، بسبب النزعة الفردانية، إلى تقديس الإنسان. ومن هنا تبدو ضرورة معرفة هذه الظاهرة الدينية خاصة في المجتمعات العربية والإسلامية وفهم تأثيرها على السلوكيات الاجتماعية والحياة اليومية.

فالملاحظ أن أغلب أشكال التدين، قد لا يكون له علاقة بالدين الصحيح (كما هو مسطر في النصوص المؤسسة القرآن والسنة) إلا من بعيد. والسؤال الجوهرى الذي نريد أن ننطلق منه هو معرفة سبب تشعب هذه الممارسات الدينية وما علاقتها بالدين المؤسس؟ ذلك أن أنماط التدين عديدة وكل طرف يدافع عن تدينه. وبالتالي كيف نميز بين هذه الأشكال التدينية المختلفة؟ وما هي الأشكال التدينية التي تمثل الدين الإسلامي وتعبر فعلا عن درجة من الإيمان تتناسب ودرجة التدين؟ والأشكال الأخرى التي لا علاقة لها بالإيمان والإسلام، وتؤدي حتما إلى التعصب؟

¹ - وهذا ما نسعى للقيام به إن شاء الله في كتاب جماعي مع عدد من الباحثين العرب المتخصصين في الموضوع، يرصد لظاهرة التدين في العالم العربي تشرف عليه مؤسسة مؤمنون بلا حدود.

هذا هو الإطار العام الذي تدور فيه إشكالتنا، والتي تثير بطبيعة الحال العديد من الأسئلة المتفرعة عنها، والتي نحاول الإجابة عنها في محاور خاصة من قبيل: هل التدين بصورة عامة يضعف أم يزيد داخل المجتمع؟ وما هو النمط الذي يزيد والنمط الذي يضعف؟ ولماذا؟

فرضيات الدراسة:

- الفرضية الأساسية لمشروع هذا البحث، تريد أن تبين أنه ليس هناك نمطا واحدا للتدين، وهذه ملاحظة تسجل عبر التاريخ وفي كل المجتمعات. فالمجتمع العربي والإسلامي بالخصوص توجد فيه عدة أنماط من التدين: إسلام "رسمي" يعكس توجهات الدولة وسياساتها الدينية، وإسلام "مثالي مقدس" كما هو موجود في الكتب والروايات والحكايات والخطب، وإسلام شعبي واقعي معيشي، وإسلام فردي وآخر جماعي، مثل إسلام الزوايا والطرائق الصوفية، وهناك أيضا إسلام الإسلاميين وإسلام السلفيين.

فخاصية الإسلام هي مرونته، وبالتالي فدرجة التدين فيه مفتوحة بين أدناها وأقصاها حسب قوة الممارس للتدين. فالصلاة مثلا مفروض فيها خمس صلوات في اليوم، وهذا أدنى درجة من التدين المقبول، لكن من يقوم بالنوافل وقيام الليل تعتبر درجة من التدين مستحسنة ولكن ليست إلزامية. فالخطورة هي فرض نوع من التدين على الجميع كقالب واحد، ومن هنا ظهور التطرف. ومعيار التطرف هنا، بالنسبة لنا، يأتي من الإلزام وليس من الممارسة؛ بمعنى أن كل تدين ولو كان مبالغ فيه ليس مرفوضا، إلا إذا حاول ممارسوه فرضه على الجميع. وهذا ما يحدث في بعض الجماعات الدينية التي تفرض على أعضائها نوعا من التدين وتريد تطبيقه على المجتمع.

فتدين الجماعات الإسلامية ليس مرفوضا، ولكن ليس هو النمط الوحيد المقبول؛ فهي تمارس تدينا معيننا كفيل بأن تحقق إسلامها كما تتصوره. قد يكون الانتماء إلى الجماعات الإسلامية مس بذاتية الفرد، فالفرد يذوب شيئا فشيئا لصالح الجماعة. والنتيجة الحتمية هو اندثار الذاتية، حيث نجد أنفسنا أمام نمط واحد للتدين. ومن هنا ظهور التعصب.²

كما أن هناك تصنيفات أخرى حسب درجات التدين: فهناك المتدينون العرضيون (الأعياد الدينية ويوم الجمعة...) والمتدينون الرسميون أو الدائمون المواظبون، وهناك التدين السلوكي والتدين التظاهري والتدين التفاعلي (يصبح الفرد متدينا بسبب حدث ما..).

² - انظر مقالنا بالفرنسية: Okacha Ben ElMostafa, « Processus d'individuation », Revue **Prologues**, n 34, 2005, pp.34-39.

- الفرضية الأخرى المرتبطة بالأولى تذهب إلى أنه بالرغم من تعدد الممارسات الدينية، فإن هناك أنماطا من التدين صحيحة في نظرنا، وأخرى تقود إلى نوع من التعصب والتطرف. فالتدين السليم هو ذلك التدين الذي يمكن قياسه بالنظر إلى الزخم الروحي والكمي للشعائر الدينية (الصلاة في وقتها وأيضاً القيام بالنوافل والقيام بجميع الأركان الإسلامية والشعائر من دون تخلف أو تكاسل). والمعيار الآخر هو تناسبه مع التدين الذي كان سائداً في فترة الرسول وكان يوصي به لأصحابه ولم يكن خاصاً به. كما أنه تدين ذو طابع فردي وليس جماعي. والمقصود بهذا أنه تدين لا يمارس بالضرورة في إطار جماعات كالزوايا والصوفية، وإنما يمارس بشكل منفرد باستثناء العبادات الجماعية المفروضة كالصلاة في المساجد والأعياد الدينية والحج. أما التدين "الطائفي" كتدين الحركات السلفية خاصة، فإنه -وبالرغم من أن منطلقهم العقدي صحيح من حيث محاولتهم تنقية الدين الإسلامي من الشوائب الدخيلة والبدع-، إلا أنه تدين جد صارم. فهو يقفز على تطور المجتمع ويعتبر كل شيء بدعة، حتى وإن كانت حسنة، فالتدين الصحيح عند السلفية هو ذلك التدين الذي لا استزادة فيه ولا نقصان. ذلك أن الرسول لم يترك شيئاً يقرب من الجنة ولا شيئاً يبعد عن النار إلا وقد حدث به (المغراوي). فهو تدين يرفض أبسط الطقوس ويناقش فيها ويجعلها قضية كبرى. فالدعاء مثلاً هو دعاء فردي عند السلفية وليس جماعي، ومن هنا فهو بدعة. كما أن الذكر الجماعي بدعة والصلاة المحمدية هي الصلاة الوحيدة المقبولة للصلاة على الرسول عليه الصلاة والسلام. وهذا يعني أن هناك أنواع عديدة من التدين لا علاقة لها بالدين، وإنما بأنماط ثقافية وسلوكية وعادات وتقاليد.

- الفرضية الأخرى تذهب إلى ملاحظة أن هناك تراجعاً للتدين وابتعاده عن التدين النموذجي كما كان ممارساً في عهد الرسول والصحابة، ولكن أنماط التدين الحالية وخاصة الفردية منها لا تنفي غياب الدين وواقعيته. بمعنى آخر لا يمكن الحكم على المجتمعات الحالية بسبب هذه الأنواع من التدين أنها لا تطبق الإسلام، لأن هذه فكرة خطيرة استشراقية تقود إلى نتيجة منطقية، وهي اعتبار الإسلام مثالي وأنه لم يطبق سوى مدة زمنية محددة تزامنت مع فترة الرسول والصحابة، وأن ما عداها يعتبر انحرافاً. هذا التصور إذن، يخرج من دائرة الإسلام كل المسلمين والممارسات التي جاءت بعد هذه الفترة.

منهج الدراسة:

لقد اخترنا منهاجا يجمع بين المقاربة السوسولوجية الأنثروبولوجية انطلاقا من بحث ميداني عبر اعتماد الملاحظة والملاحظة التشاركية، والاستمارات واللقاءات المباشرة مع بعض المواطنين من بينهم طلاب لأجل قياس درجات وأنواع التدين داخل المجتمع³. وبين المقاربة التحليلية لمختلف الإسهامات النظرية التي قدمها رواد علم الاجتماع الديني في الغرب خاصة⁴.

ونطلق في هذه الدراسة من خلال التصور الذي يعتبر الظاهرة الدينية متغير مستقل وتابع في آن واحد. بمعنى آخر، فإن الظاهرة الدينية تؤثر وتتأثر بمتغيرات أخرى؛ وذلك من أجل تجاوز النظرة التي تعتبر أن الظاهرة الدينية ما هي إلا متغير تابع لعوامل أخرى. فنعتبر أن الظاهرة الدينية لها منطقتها الخاص وميكانيزماتها الخاصة بها الكفيلة بالتأثير على المجتمع والدولة وليس فقط تتأثر بغيرها من العوامل.

ولدراسة التدين في مختلف مظاهره قمنا بتتبع تجلياته في مؤشرات عدة كالصلاة والصوم والحج ومؤشر اللباس ومؤشر تبني الأفكار (الانضمام إلى أحزاب أو جماعات). وبعض تحديات التدين كترجع القيم والانحلال الخلقي ومؤشر الفضائيات والأفلام والموسيقى.

واعتمدنا على معايير لقياس وتصنيف أشكال التدين الموجودة:

- فمثلا معيار الديمومة (الزمن) هو مقياس يقيس درجة استمرار ممارسة تدينية ما. فكلما كانت دائمة كلما اعتبر تدينا صحيحا ونموذجيا ومعتدلا على اعتبار أن كل تطرف وتشدد في التدين لا يدوم.

- هناك قياس الكثافة *P'intensité* من خلال بعض مؤشراتته. فمثلا في طريقة الصلاة هناك قبض اليدين وسد لها أو بسطها. قبض اليدين تؤثر على خشوعه في الصلاة أكثر ربما من السدل. وتقاس الكثافة أيضا من خلال القيام بالنوافل في الصلاة والصوم مثلا. ومن خلال مؤشر العدد؛ أي كم عدد المرات يمارس المتدين الشعائر الدينية وهل يتجاوزها بأعداد كبيرة. وتقاس الكثافة أيضا من خلال مؤشر طريقة التدين. فمثلا في الصلاة هل يمارسها فرديا أم جماعيا. فنكون أمام الكثافة إذا كان المؤمن يمارس صلاته بشكل جماعي ومنتظم. وأيضا من خلال سماعه لأنواع معينة من الموسيقى الروحية والابتهالات وسماع القرآن ورفضه لأنواع الموسيقى الأخرى. اللباس يقيس أيضا الكثافة (حجاب، نقاب، برقع أم تبرج؟).

³- هذا البحث الميداني ليس معمما على المغرب وإنما اخترنا منطقة معينة، وهي المنطقة الشرقية بالذات. حوالي 100 استمارة إضافة إلى الملاحظات المباشرة واللقاءات مع العديد من المواطنين والطلبة خاصة. لكن مستفيدين من مختلف الأبحاث الميدانية بالمغرب ودول أخرى وعلى الإحصائيات لتكملة بحثنا.

⁴- نشير إلى إسهامات كل من إيميل دروكايم؛ ومارسيل موس، ومالينوفسكي، وتروليتس، وفيرر...

مقياس الكثافة هذا يمكننا من معرفة هل نحن أمام تدين معتدل أم متطرف. فكلما كانت هناك كثافة زائدة تزيد عن الحد الأقصى كلما كان تديننا استثنائيا، وليس تديننا عاديا وبالتالي مرفوض. فمثلا بخصوص لباس البرقع بالنسبة للمسلمة يعتبر استثنائيا لا تقوم بها إلا فئة قليلة جدا. كما أن صيام النوافل كل يوم يعتبر غلوا. فالقاعدة هي لا إفراط ولا تفريط وفي الحديث النبوي: "ما شاد أحد هذا الدين إلا غلبه". والآية القرآنية في سورة البقرة تشير إلى الاعتدال: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا".

- هناك معيار التردد أو التكرار **la fréquence**. فمثلا الصلاة هل يقوم بها في وقتها وبشكل منتظم أم لا. فكل ممارسة دينية منتظمة ومتكررة تعتبر تديننا صحيحا. أما التدين العابر، فيعني أنه غير مرتبط بالدين وبالتالي فلا يتكرر من خاصيته انه غير منتظم يقوم به الفرد كلما احتاج إليه، مثل زيارة بعض الأولياء أو القيام ببعض الطقوس الغربية.

الدين والتدين: محاولة لتحديد المفاهيم

اعتقد علماء اجتماع الدين خاصة في الدول الغربية، منذ الفكر الاجتماعي لكونت وماركس ودوركهام باستثناء ماكس فيبر بأنه مع تطور العلوم سيزول الدين. وتكهنوا بانحساره وتأثيره في المجتمعات الحديثة.

إلا أن العالم يشهد بقاء للديانات وتطورها، بالرغم من تراجع تأثير بعضها.⁵

وقد بدأ الاهتمام بالدين كدراسة علمية منذ العلماء المسلمين⁶ وليس كما يذهب البعض إلى كتابات ماكس ميللر سنة 1875.

⁵- يوجد حاليا العديد من الديانات، ولكن الديانات التوحيدية الثلاث هي الأكثر ثباتا وانتشارا. وتعتبر الهندوسية من أقدم الديانات القائمة حتى الآن، وتتميز الهندوسية بتعدد الآلهة وبدرجة من التشعب. ويؤمن أغلب الهندوس بمبدأ التناسخ. أما على الصعيد الاجتماعي، فتتميز بنظام "الكاست"؛ أي الاعتقاد بأن الأفراد يولدون في شريحة اجتماعية محددة وفقا لطبيعة الأنشطة التي كانوا يقومون بها في حياة سابقة (الكرمة) أعلاها هي شريحة لبراهما. ولكل شريحة اجتماعية طبقية محددة منظومة من الواجبات والشعائر التي يحدد أدائها مصير الشخص في الحياة المقبلة. والهندوسي لا يؤمن بالنبشير أي جلب الآخرين نحو ديانتهم عكس المسيحي أو المسلم.

وهناك البوذية المتفرعة عن الهندوسية نسبة إلى بودا (والتي تعني المستنير) منذ القرن السادس قبل الميلاد. ويرى بودا أن سبيل الخلاص يتمثل في ضبط النفس والتأمل بعيدا عن مهمات العالم اليومية. وتهدف في نهاية المطاف إلى الوصول إلى "الذرفانا" أي الذوبان الروحي الكامل. وقد رفض بودا الشعائر الهندوسية والقيود المشددة التي يفرضها نظام الشرائح الاجتماعية المتصلب. وتنتشر البوذية خاصة في الصين وتايواند وبورما وسيريلانكا واليابان وكوريا. أما الكونفوشية، فتنسب إلى كونفوشيوس الذي عاش في زمن بودا؛ أي في القرن السادس قبل الميلاد. وكان مثل لاوتسو مؤسس "الطاوية" يعمل في ميدان التدريس ولم يكن يعتبر نفسه نبيا، وإنما "من أحكم الحكماء". وتسعى الكونفوشية إلى تكييف الحياة البشرية مع عالم الطبيعة وإجلال الآباء والأجداد الأقدمين.

والكونفوشية والطاوية فقدتا كثير من نفوذهما خاصة في الصين بعد الحظر الذي فرضته الحكومة الصينية منذ الخمسينيات من القرن العشرين.

⁶- نشير على سبيل المثال إلى كتابات أبو الحسن الأشعري وكتابه **كتاب جمل المقالات** والمسعودي كتاب **المقالات في أصول الديانات** وابن حزم الظاهري كتاب **الفصل في الملل والنحل** والشهرستاني **الملل والنحل** وفخر الدين الرازي **اعتقادات المسلمين والمشركون** والبغدادي **الفرق بين الفرق**.

فقد اعتبر كونت أن الدين هو أول مرحلة من التفكير البشري وسيزول، ويحل محله التفكير الفلسفي ثم بعد ذلك التفكير العلمي الوضعي.

ولكن الملاحظ أن الظاهرة الدينية لم تشهد تقلصا حتى مع سيادة التفكير الفلسفي منذ اليونان، بل شهدت ميلاد ديانات توحيدية تزامنا معه. وحتى التفكير السحري قد يكون متزامنا مع التفكير العقلي، وهذا ما لاحظته العديد من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين. فعند دراسته لقبيلة تروبرياندا، لاحظ مالينوفسكي أن التفكير العملي والعقلي يتزامن مع التفكير السحري لدى القبيلة الزراعية. فعندما يعجزون عن حل المشاكل الفلاحية بطرائق عملية وعقلية يلجأون إلى بعض الطقوس السحرية⁷.

أما ماركس، فإنه لم يدرس الدين بشكل تفصيلي وعمق. ولهذا السبب كانت له أحكام قاسية على الدين، باعتباره يقود إلى الاستلاب لأنه يغض الطرف عن مقاومة المظالم ما دام يعد المؤمنين بحياة أخروية، وهذا يعني الخضوع للقمع. وعموما بالنسبة له، فإن الدين ليس له وظيفة أساسية، وإنما هو تابع للعوامل الأخرى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. فالدين بالنسبة له يعمل على تبرير النظام الاجتماعي القائم على التراتبية بإضفاء مشروعية على مختلف الأعمال الرمزية والسياسية.

خلافًا لماركس، فإن دوركهيم اهتم كثيرا بالدين في دراساته. فكتابه حول الأشكال الأولية للحياة الدينية الذي نشر عام 1912 يعتبر من أهم الأعمال في علم الاجتماع الديني. فهو ركز على الطوطمية التي يمارسها سكان استراليا الأولون، باعتبارها الأشكال الأولى للحياة الدينية. وانطلاقا من هذه الدراسة حول الطوطم يعرف دوركهيم الدين عن طريق الفصل بين ما هو مقدس من جهة، وما هو مدنس من جهة أخرى.

فقد لاحظ أن المعتقدين في الطوطم لا يأكلون أنواعا من الحيوانات أو النباتات لأنه طوطم مقدس.

واعتبر دوركهيم أن الجماعة هي المسؤولة عن تكوين الدين والأخلاق من خلال إضفاء الطابع المقدس على الاحتفالات والطقوس الجماعية. وبالتالي، فقد ربط بين الجماعة والدين واعتبر أن الأولى متغير مستقل، وأن الدين متغير تابع. فهو يتغير بتغير الجماعة. والدين بالنسبة لدوركهيم يمنح سلطة وقدسيتها على القواعد والقيم الأخلاقية للجماعة، وهو يخلق نوعا من التضامن الجمعي.

⁷- Malinowski. B, *Magic, science and religion and other essays*, Giencoe III, The Free Press, 1984, p. 11

لكن العمل الذي قام به ماكس فيبر يعتبر من أهم الأعمال في علم الاجتماع الديني. فقد قام بدراسة كبيرة للديانات القائمة وقارنها، مثل الهندوسية والبوذية والطاوية واليهودية القديمة والمسيحية، ولكنه لم يستكمل دراسته عن الإسلام.

فالدين، عنده، لا يؤدي فقط وظيفة التماسك الاجتماعي والتضامن وتناغم النظام الاجتماعي، بل يؤدي أيضا دور المثير القادر على إحداث التغيير والتطور الاجتماعي.

وبين في أطروحته المشهورة⁸ العلاقة الضيقة بين الرأسمالية وحركة الإصلاح البروتستانتية خصوصا عند كالفن. فهناك علاقة بين المعتقدات الدينية والأخلاق العملية، خاصة أخلاق النشاط الاقتصادي في المجتمع الغربي منذ القرن السادس عشر وحتى العصر الحديث.

فالأخلاق البروتستانتية وخاصة الكالفينية منها، تحث المؤمن على العمل والنجاح الدنيوي كمؤشر على النجاح الأخروي ورضا الله. وأن الثروة هبة من الله من بها عليهم؛ فهو يؤمن بأخلاق العمل الشاق وتحقيق أقصى ممكن من الإنتاج. فالنجاح من خلال العمل هو مؤشر على رضا الله كما أنه تقرب إليه في نفس الوقت، لأنه واجب مثل الواجبات الدينية الأخرى⁹. كما أنه وسيلة لتقديم الشكر لله، فالعمل له قيمة كبيرة وليس نتيجة لخطيئة آدم.

فمن خلال العمل وحده يستطيع البروتستانت أن يصل إلى الخلاص وإلغاء كل الطرق الوسيطة التي يأخذ بها الكاثوليك، مثل وساطة رجل الدين والكنيسة.

وميز بين الزهد الدنيوي والزهد الأخروي، واعتبر أن البروتستانتية الكالفينية تهتم بالزهد الدنيوي عكس الديانات الأخرى كاليهودية والبوذية اللتان تهتمان بالزهد الأخروي، ومن هنا شكل هذا عائقا نحو التطور في اتجاه الرأسمالية مادامت هذه الحياة الدنيا ليست هي الأهم، وإنما الحياة الأخروية.

ولا بد أن نميز بين الدين والتدين. فهناك باحثين، مثل عبد الجواد ياسين¹⁰ يميزون بين الدين والتدين من خلال معيار الدين في ذاته والدين كاجتماع. فكل ما هو دين في ذاته (أي الأخلاق والألوهيات) هو من الدين

⁸ - Voir Max Weber, *L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme*, Plon, 1964

⁹ - بقرينا هذا من المفهوم الإسلامي للعمل الذي يعتبره الإسلام مقدسا ويحث عليه وينبذ كل الأسباب والأنشطة التي تؤدي إلى الكسل أو الكسب من دون عمل كالربا مثلا. ويلخص القرآن الكريم قيمة العمل في الآية التالية "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون".

¹⁰ - عبد الجواد ياسين، الدين والتدين، التشريع والنص والاجتماع، التنوير، بيروت، 2012، ص ص 8-9

فقط، والباقي هو من التدين لأنه مسألة اجتماعية خضعت لعملية تطور. مما يعني أن الدين في ذاته ثابت والتدين متطور ومتغير.

واضح أن هذا التمييز يقصي من الدين التشريع نفسه، باعتباره قواعد قانونية تخضع للتطور والاجتماع.

والكاتب يذهب إلى أنه يمكن أن نجد دينا بدون تشريع كما حدث في الحقبة المكية. ولكن في واقع الأمر، فإن الدين الإسلامي في الحقبة المكية لم يكتمل بعد، فقد كان في بداياته ولا بد من تشريع حتى يكتمل الدين وإلا بقي عبارة عن أخلاق وآداب ونصائح. والإيمان كما جاء في الحديث النبوي هو: "ما وقر في القلب وصدقه العمل". وكيف يصدق العمل، إن لم تكن هناك تشريعات.

فالتشريع يدخل ضمن مجال التدين وليس الدين حسب عبد الجواد ياسين بدليل أن التشريع الجنائي في الفقه الإسلامي كان أكبر حجما مما هو موجود في النص القرآني الذي تحدث فقط عن ست عقوبات¹¹، في حين أن الفقه تحدث عن عقوبات كثيرة.

لكن، في نظرنا، يدخل التشريع ضمن مجال الدين وليس التدين، لأن التشريع أساسي في البنية النصية للإسلام، والذي لا يشمل فقط القرآن، وإنما السنة بما فيها الأحاديث التي تعتبر مكملة وشارحة للقرآن الكريم. صحيح أن هناك أحاديث موضوعة، وهذا باعتراف حتى المتخصصين في الحديث القدامى والمعاصرين، ولكن الحديث كنص جزء أساسي من الدين فهو الذي يشرح الأحكام ويفسرها ويكمل ما هو غير موجود في النص القرآني. فالرسول لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

من هذا المنطلق، فإن التشريع من الدين ولا يدخل في باب التدين لذلك لن نتحدث عنه إلا من حيث تصور بعض المسلمين فرادى أو جماعات لكيفية تطبيق الشريعة. فإضفاء الطابع الفردي والتأويلي على الشريعة الإسلامية هو الذي يدخل في مجال التدين وليس الشريعة نفسها التي تعتبر جزء من الدين الأساسي.

والدين من الناحية اللغوية كما جاء في لسان العرب عند ابن منظور يعني الطاعة وقد يعني المحاسبة والجزاء... ونقول دانه دينا؛ أي ملكه وحكمه وحاسبه. وفي الحديث الشريف: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت"¹²؛ أي حكمها وضبطها.

¹¹ - وهي كالتالي القتل العمد، القتل الخطأ، الجروح، الزنا، القذف بالزنا والسرقعة، بينما الفقه أضاف الردة والحراية وشرب الخمر إضافة إلى جرائم التعزير.

¹² - رواه أحمد في المسند.

ومن هنا دان له؛ أي خضع له وأطاعه. فالدين هنا هو الخضوع والطاعة والعبادة.

والدين في المفهوم القرآني له عدة معاني ولكن مترابطة فيما بينها. فقد يعني الجزاء كما جاء في سورة الفاتحة "مالك يوم الدين". وقد يراد به الطاعة كما في الآية التالية: "وأخلصوا دينهم لله".

وأحيانا يراد به أصول الدين وعقائده كما يقول تعالى: "شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه...".¹³

وقد يعني أية عقيدة، حتى وإن كانت باطلة: "لكم دينكم ولي دين"¹⁴. فهناك دين باطل ودين الحق: "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق".¹⁵

فالدين هو مجمل المعتقدات والتصورات حول الله والغيب. وهذا يستتبع بالضرورة الإيمان بالله ليس فقط كإيمان عقدي، وإنما أيضا إيمان عملي. مما يعني الالتزام بجميع الأحكام التي وردت في الدين من خلال النصوص المؤسسة له.

والدين قد يكون مصدره إلهي كما هو الشأن بالنسبة للديانات التوحيدية اليهودية والمسيحية والإسلام، وقد يكون مصدره بشري كالديانة البوذية والهندوسية وغيرها. وكل دين يتوفر على العناصر التالية:

- الإيمان بوجود إله.
- التمييز بين عالم المادة وعالم الأرواح.
- طقوس وشعائر تعبدية تقرب إلى الإله.
- أخلاق وقيم تهدي السلوك.
- شريعة وقوانين تنظم سلوك المؤمنين.

أما التدين، فهو الطريقة التي يعيش بها الناس هذا الدين في حياتهم اليومية¹⁶ وكيفية تطبيقه وإضفاء تصوراتهم حول الدين. إنه إذن، مظهر خارجي للدين يتمثل في سلوك المتدين. هذا السلوك لا يقتصر على

¹³ - سورة الشورى الآية 13

¹⁴ - سورة الكافرون الآية 6

¹⁵ - سورة الفتح الآية 28

¹⁶ - عبد الغني مندوب، الدين والمجتمع، دراسة سوسولوجية للتدين بالمغرب، أفريقيا الشرق، البيضاء، 2006، ص 7

الطقوس والعبادات، وإنما يشمل مختلف الأفكار والتمثلات والمعتقدات حول الدين، مما يعني أن المتدين قد يمارس أعمالا ويندمج في إطار جماعات أو حركات انسجاما مع تصوره للدين.

ومن هذا المنطلق، يمكن أن نوضح الأمور التالية بخصوص العلاقة بين الدين والتدين في النقاط التالية:

- التدين قد يعبر عن الدين فعلا؛ فالمتدين هنا لا يسلك إلا ما نص عليه الدين. فنحن أمام انسجام بين الدين والتدين.

- قد يكون التدين لا علاقة له بالدين؛ أي أن المتدين، إما يبالي في ممارساته الطقوسية والسلوكية، وإما أنه يبتدع سلوكيات خارج الدين مع اعتقاده بأنها من الدين.

- قد نكون أمام تدين مقبول دينيا ولكنه مبالغ فيه؛ أي ليس مطلوباً ومفروضاً ولكن المتدين يعتبره مطلوباً.

- قد نكون أمام تدين أقل مما يطلب من الناحية الدينية.

- لا يمكن فصل الدين عن التدين، لأن أحدهما يؤدي إلى الآخر؛ فالدين لا محالة ينتج لنا تدينا بشكل من الأشكال.

وهذا التمييز بين الدين والتدين هو الذي يستطيع رفع التناقض بين مسألة ثبات الظاهرة الدينية وتراجعها في آن واحد. فقد تراجع المظهر وبقي الجوهر.

تصنيف أشكال التدين:

على الرغم من أننا نذهب إلى أن العامل الديني يعتبر متغير له استقلالية عن المتغيرات الأخرى، لأنه يتوفر على منطوق وآليات خاصة به وليس فقط مجرد عامل تابع للمتغيرات الأخرى، إلا أنه يخضع إجمالاً للعوامل الاجتماعية والبيئية والاقتصادية والسياسية والثقافية. بمعنى آخر قد يتأثر التدين بتغير عامل من العوامل. فالانتقال مثلاً من القرية أو البادية إلى المدينة الكبيرة قد يؤثر على درجة تدين المؤمن وطبيعته، ولكن ليس دائماً. فالدين يوجد داخل نسق اجتماعي وسياسي وثقافي معين يؤثر ويتأثر به.

ومن هذا التصور نحاول تبيان أنماط التدين وتأثرها بمختلف العوامل الأخرى محاولين معرفة قوة التأثير ودرجة استقلالية العامل الديني أو تبعيته؟

وإذا كان أرنست ترولنتش (1865-1923) قد ميز بين ثلاثة أنماط من التدين في المسيحية: الكنيسة (الجماعة العامة الرسمية) والمذهب أو النحلة (الجماعة الخاصة) والتصوف (الرهبانية) فإن التدين في المجتمع الإسلامي، ومن ضمنه المغرب الذي اخترناه كنموذج يعرف عدة أنماط من التدين نجملها في التالي:

1. التدين الجماعي:

من أهم خصائص كل دين الطقوس والممارسات السلوكية الجماعية. فالممارسات الجماعية هي التي تقود في كثير من الأحيان إلى طقوس دينية. فمثلا وكما أشار إلى ذلك مالينوفسكي، فإن جماعة التروبرياند البدائية في المحيط الهادي تقيم بعض الطقوس شبه الدينية، عندما يغادر أحد القوارب الشاطئ محملا بأبناء القبيلة في رحلة محفوفة بالمخاطر. لكنهم لا يقيمون مثل هذه الشعائر الجماعية، إذا ركب أحدهم زورقه لوحده لصيد السمك.¹⁷

أ- التشيع:

يعتبر التشيع نمطا من أنماط التدين الجماعي في الإسلام. وقد بدأ في المغرب ظهور تنظيمات للتشيع. وانتشر خاصة بعد انتصار حزب الله على إسرائيل سنة 2002 وانتصار المقاومة الإسلامية في 2006. والشيعية في المغرب لا يمثلون إلا نسبة ضئيلة قد لا تتجاوز حتى 0,01 بالمائة من ساكنة المغرب. وبالنسبة للسنيين، فإن التشيع قد يعني البعد عن الإسلام. ففي دراسة لمركز بيو الأمريكي، فإن 51 في المائة من المغاربة يعتبرون الشيعة غير مسلمين.¹⁸

وتدين الشيعة يختلف عن تدين السنة في العديد من العبادات وأيضا في التصورات والمعتقدات. فبالنسبة لهم الإمامة تعتبر ركنا من أركان الدين لا يمكن الإغفال عنها، وهي ضرورة وتوقيفية لا تثبت إلا بنص متصل الإسناد إلى الله.

فوظيفة الإمام أوسع من مفهوم السلطة والحكم، حيث تتعلق بالهداية والإرشاد.

لم يعد التشيع حركة سياسية تهدف إلى رفع الظلم أو إسقاط الحكومة، وإنما حركة "تصحيحية للدين" ترمي إلى تحقيق ماهية الدين. "صفات الإمام هي صفات الأنبياء" الذين يتصفون بالعصمة.

¹⁷ - أونتوني غدنز، وكاريل بيردسال، علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)، ترجمة فائز الصباغ، المنظمة العربية للترجمة، ص 570

¹⁸ - انظر موقع مركز بيو Pew Research Center. Pew forum.org

ب- الحركات الإسلامية:

إجمالاً تتفق الحركات الإسلامية حول مسألة أن نمط التدين السائد في المجتمع هو تدين خاطئ. وبالتالي تقدم نفسها على أنها البديل لتدين "صحيح".

ويظهر هذا النموذج البديل خاصة لدى الحركات السلفية التي تعتبر أن نمط التدين الصحيح هو تدين السلف الصالح النقي.

فجماعة الدعوة والتبليغ مثلاً تريد أن تؤسس لتدين جديد من خلال "الجلسات الإيمانية" و"جلسات الذكر"، ولكن في نفس الوقت ترسخ للتدين الذي يحث عليه الإسلام، مثل زيارة الأقارب وصلة الرحم وزيارة المرضى وإعانة المحتاجين وكل أعمال البر والإحسان. لكن الجديد فيها هو أنها تقوم بها في إطار جماعي وليس فردي. بمعنى أنه تدين جماعي يعتمد على زمر من المؤمنين يقومون جماعة بهذه الأعمال الخيرية تأسيساً على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تطبيقاً للآية القرآنية: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون".¹⁹ وهو تدين غير سياسي، وإنما دعوي وأخلاقي.

وتدينها صارم وليس مرناً من حيث إنها ترفض التدين الموجود من خلال إنكارها بعض الممارسات اليومية كزيارة الأضرحة والقراءة الجماعية للقرآن وطريقة الصلاة والأدعية واللباس وغيرها من الأمور التي تعتبرها تمس جوهر العقيدة وليس مجرد جزئيات. إنها تضيف نوعاً من التفسير الخاص، يجعلنا أمام تدين مخالف للتدين الشعبي المعروف.

والجدير بالملاحظة أن هذا التدين البديل الذي تدعو إليه هذه الحركات السلفية والدعوية وإجمالاً بعض الحركات الإسلامية لم يستطع تقويض التدين الشعبي. فما زالت العادات الشعبية والطقوس المحرمة فقهياً مستمرة وقوية بفعل عدة عوامل تتمثل في "سهولته وجاذبيته لدى العموم"، ولكن أيضاً، في نظرنا، يعود إلى دور الدولة في الحفاظ عليه وتبنيه كشكل من التدين لا يهدد النظام السياسي والاجتماعي القائم.

وقد ربط غيرتز²⁰ أيضاً بين الاستقرار السياسي بالمغرب واستمرار هذا التدين الشعبي التقليدي. فقد حظيت الأضرحة على امتداد التاريخ المغربي بعناية المخزن الذين كانوا يبجلونها ويحثون الناس على احترامها.²¹

¹⁹- الآية 104 من سورة آل عمران

²⁰- E.Gelner, *Saints of Atlas*, Weidenfeld and Nickolson, London, 1969

²¹- Paul Pascon, *Le Haouz de Marrakech*, Editions marocaines et internationales, 1977, p. 258

والملاحظ هو تراجع الانضمام إلى الجماعات الدينية، ومن ضمنها الجماعات السلفية، مما قد ينتج عنه تراجع في طبيعة هذا التدين. فحسب دراسة الإسلام اليومي، فإن 42 بالمائة من المستجوبين رفضوا الانتماء إلى أية جماعة. وعبر 24 بالمائة منهم عن رغبتهم في الانتماء لجمعية أخلاقية و16 بالمائة لجمعية دينية و11 بالمائة لجمعية حقوقية.

وهذا النوع من التدين الجماعي خاصة السلفي منه تحاربه الدولة بشتى أنواع الطرق. فقد قامت مثلا منذ سنة 2008 بغلق دور القرآن التابعة لبعض الجماعات السلفية كجماعة الدعوة إلى القرآن والسنة للشيخ المغراوي على خلفية رأيه بخصوص تزويج البنت الصغيرة. ولا يزال لحد الآن إغلاق بعض دور القرآن في عدة مناطق من المغرب.

2. التدين الشعبي والفردى:

اعتبر إيدوارد فيسترمارك في بحثه الأنثروبولوجي²² أن الدين الشعبي المغربي مختلف عن الدين "الرسمي" الفقهي؛ فالتدين الشعبي يمزج بين ما هو سحري وديني في الطقوس المغربية بسبب الحضور القوي للبقايا الوثنية داخل المعتقدات الدينية والطقوس.

فتدين العديد من المغاربة هو تدين مصبوغ بطقوس تصاحبه. فمثلا هناك من يقرأ القرآن في شكل طلاسمة وليس ككتاب هداية وتحسين السلوك، بل إن منهم من يخصص آيات قرآنية لمناسبات وطقوس معينة،²³ ومنهم من يمارس السحر والشعوذة عبر القرآن.²⁴

ويذهب فيسترمارك إلى وجود بقايا وثنية²⁵ في معتقدات المجتمع المغربي يرجعها إلى بقايا الوثنية العربية وبقايا المعتقدات قبل مجيء الإسلام.²⁶ ويجب أن نميز في هذه المعتقدات بين ما يدخل في إطار التدين وما يدخل في إطار الدين. فالدين الإسلامي لم يقترح طقوسا معينة لمحاربة العين مثلا أو أذى الجن الشرير، وإنما اكتفى بالإيمان والالتجاء إلى الله كحماية كافية. لكن الطقوس المصاحبة لها والمبالغة في الحماية منها هي التي تدخل، في نظرنا في إطار التدين وليس الدين.

²²- Edward Westermarck: **Ritual and belief**, 1926, op. cit, p. 8

²³- هذا لا ينفي قدرة القرآن باعتبار كلام الله على الإتيان المعجزات ولكن الناس لا يستنبطون منه سوى هذه الأمور، مما قد يؤثر على تدينهم في حالة عدم الوصول إلى مبتغاهم وبالتالي إفراغ القرآن من قوته وتأثيره الحقيقي المتمثل في ترقية السلوك والأخلاق. فقد كان رسول الله قرانا يمشي على الأرض كما أخبرت بذلك عائشة أم المؤمنين زوج الرسول عليه الصلاة والسلام.

²⁴- Westermarck, op.cit, p. 17

²⁵- الاعتقاد مثلا في إهداء بعض الأمور لإرضاء الجن كذبح الطيور عند دخول المساكن الجديدة. وأيضا إقامة بعض الاحتراوات للحماية من العين الشريرة وارتداء اللون الأسود الذي يطرد العين في نظرهم، بل حتى ارتداء النقاب كان بسبب الحماية من العين.

²⁶- Edward Westermarck, **Les survivances païennes dans la civilisation mahométane**, Payot, Paris, 1935, p. 8-9

ونفس الشيء يقال عن مفهوم الصلاح. فالدين الإسلامي يعترف بالصلاح ووجود الأولياء، إلا أن الأفراد يصفون على الولي الصالح هالة كبيرة، باعتباره صاحب قدرات خارقة في حياته ومماته. وبالتالي ينتج لنا تدينا يبعدها عن المفهوم الإسلامي للصلاح والأولياء.

واعتبر ايدموند دوتي أن سكان إفريقيا الشمالية اضطروا للتحويل مع مجيء الإسلام من أجل المحافظة على معتقداتهم الأصلية الوثنية وذلك بمزجها بطقوس وممارسات تبتعد عن الدين الإسلامي. ويدخلنا هذا في باب التدين.²⁷

ومن أسباب استمرار هذا النوع من التدين، في نظرنا، هو بحث الناس عن الوساطة التي توصل إلى الله. والأولياء، في نظر المعتقدين، هم أفضل الوسطاء، لأنهم يتوفرون على البركة أثناء حياتهم وبعد مماتهم. والروايات التي تحكى عنهم تمثل السند الأساسي لضمان استمرار الزوار للضريح مثلا.²⁸

فهم يعتقدون بضرورة المرور عبر وساطة الولي لقضاء الحوائج.²⁹ بل إن بعض الأضرحة تصبح "متخصصة" في إيجاد الحلول لزائريها. فهناك أضرحة لإبرام العقود كضريح مولاي عبد الله أمغار وضريح مولاي بوشعيب الرداد "المتخصص" في شفاء العاقر وأضرحة أخرى متخصصة في طرد النحس.... إلخ.

والملاحظة العامة بخصوص هذا النوع من التدين، هو أنه تدين له ارتباط بمتغير الجنس، إذ أن أغلب زائري الأضرحة هم من النساء. لكنه بدأ يعرف نوعا من التراجع.

3. التدين الرسمي:

هو تدين يتم تشجيعه والترويج له من طرف وزارة الأوقاف والمجالس العلمية والمساجد الرسمية وأيضا في تشجيع المهرجانات الثقافية والغنائية لإضفاء تدين "حدائي منفتح" لا يتنافى مع "الترويج" عن النفس بالنسبة للمسلم. وهذا التدين الرسمي تحتل فيه الزوايا حجر الزاوية. وتنتشر الزوايا في المغرب بشكل كبير إلى درجة أن إرنست جلنر وغلينفورد غيرتس اعتبارا المغرب بلد الأولياء.

فالدولة المغربية تراهن على التصوف وعلى الزوايا خاصة بعد أحداث 2003 بالدار البيضاء من أجل تأسيس لمفهوم تدين معين قصد التصدي لتدين الحركات الإسلامية والسلفية الذي هو تدين مسيس واحتجاجي.

²⁷ - Edmond Doutté, *Magie et religion en Afrique du Nord*, Maisonneuve, p. Geuther, S.A Paris, 1984, p. 15

²⁸ - Paul Pascon, *La maison d'Illigh*, p. 153

²⁹ - انظر لمزيد من التفصيل: Ernest Gelner, « Comment devenir Marabout », *BESM*, N, 128-129, Rabat, 1969, p. 42

يتجلى هذا الدور المنوط للزوايا والطرائق الصوفية من خلال تشجيع العديد من اللقاءات الصوفية بالمغرب، مثل تنظيم لقاء سيدي شيكر العالمي الأول³⁰ من طرف وزارة الأوقاف سنة 2004. وأيضا لقاء سيدي شيكر الوطني سنة 2008، حيث شاركت فيه أزيد من 32 زاوية.³¹ وأيضا عدة ملتقيات للتصوف بالمغرب.

وأیضا الحفل الذي تنظمه كل سنة الزاوية البوتشيشية بمداغ إقليم بركان³² بمناسبة المولد النبوي، وأيضا في شهر رمضان خاصة ليلة القدر، حيث يحضره العديد من الزوار يأتون من شتى أصقاع العالم ومناطق المغرب، ويحظى بتغطية إعلامية وشهرة واهتمام من طرف الدولة والباحثين والمنتبعين.

وتحظى الزاوية بكثير من التقدير على الرغم من أنها ليست هي الطريقة الصوفية الأولى في المغرب من حيث عدد التابعين والزوايا التابعة لها حيث إن الطريقة التيجانية هي التي تحتل المرتبة الأولى.³³ لكن تأثيرها أقوى من تأثير التيجانية. فالكثير من أتباعها ومريديها ينخرطون فيها من أجل الحصول على المزيد من الحظوة بتقربهم من شيخ الزاوية الذي له نفوذ سياسي أيضا.³⁴

خصائص التدين الجديد:

ما لاحظناه في دراستنا للظاهرة الدينية وما لاحظته العديد من الباحثين أيضا انطلاقا من دول غربية، وإن كنا نختلف معهم في بعض خصائصه وفي تفسير الظاهرة، أن التدين الذي نحن بصدد دراسة تجلياته يتميز بمجموعة من الخصائص:

- إنه تدين بدون ثقافة عند الأغلبية؛ أي بدون معرفة دينية قوية. فهو تدين شكلي أكثر منه معرفي. فالمتدين قليلا ما يهتم بالمعرفة الدينية حتى يلاءم تدينه مع النصوص الدينية المؤسسة، وإنما يعتمد على معرفة سطحية سهلة وسريعة.

³⁰- يوجد على بعد 80 كلمتر من مراكش دائرة حمو بولاية أسفي.

³¹- لمزيد من التفصيل انظر تقرير الحالة الدينية لسنة 2008-2009، ص 166

³²- الأب الروحي للزاوية حاليا هو الشيخ حمزة وهو شيخ كبير طاعن في السن يحظى بكبير احترام من طرف أتباعه ومريديه. وسميت الطريقة بالبودشيشية نسبة إلى كلمة دشيش الذي كان يلقب به جد حمزة علي بن محمد بودشيشة حيث كان يطعم الناس الدشيشة أيام المجاعة في الزاوية.

³³- انظر تصنيف تقرير الحالة الدينية لسنة 2009

³⁴- يتجلى هذا النفوذ مثلا في كون أحد أبنائه أحمد القادري بودشيش عين عاملا على إقليم بركان قبل مجيء العامل الحالي على الإقليم عبد الحق الحوضي. كما أن ابنه الآخر جمال بودشيش هو عضو في المجلس العلمي المحلي ببركان.

- إنه تدين عاطفي انفعالي أكثر منه تدين عقلاني؛ فهو يعتمد على المظاهر الخارجية للتدين (حجاب، لحية، لباس...).

ففي هذا الشكل من التدين، يريد الفرد إظهار تدينه للعالم من خلال شكله الديني. ويظهر هذا جليا ليس فقط في مجتمعات العالم الإسلامي، ولكن خاصة في مجتمعات البلدان المستقبلية للمسلمين في الغرب. فالجيل الجديد من المسلمين- عكس الجيل الأول الذي كان يخفي تدينه، حتى لا يطرد من العمل- يعتبر نفسه مسلما وله الحق في إبراز إسلامه، لأنه ازداد في بلاد المهجر. كما يمكن أن يفسر على أنه افتخار بالهوية الدينية على أساس أن هذا الشباب يحس بأن هويته مهددة، وأن الدولة المستقبلية تعاملهم كأنهم مواطنون من "الدرجة الثانية".

هذه الانفعالية والعاطفية، تتجلى أيضا في كون الدعاة "الجدد" يعتمدون في مخاطبتهم للجماهير، وخاصة عبر القنوات الفضائية "المتخصصة" في الدين على خطاب عاطفي انفعالي وليس عقلاني. فمنهم من تنتهي دروسه أو تبدأ خطبه بأدعية طويلة أو بكاء أو تباكي، حتى يؤثر في مشاعر المشاهدين والمستمعين.

- إنه تدين تطبعه النزعة الفردانية والذاتية. يظهر هذا جليا في عدة مظاهر من بينها مجال الفتوى، سواء من جهة المفتي أو من جهة طالب الإفتاء. فالكثير من المتدينين يلجأون إلى فتاوى جاهزة وسهلة و"عصرية" تجيبهم عن أسئلتهم الراهنة والمرجحة. و"المفتون الجدد" لا يترددون في مدهم بهذه الفتاوى التي ينقصها الكثير من المعرفة الدينية. فالكثير من الدعاة لم يتخرجوا من الجامعات والمعاهد الدينية المعروفة التي تحتاج إلى دراسة طويلة، مما ينتج لنا ارتجالية وفوضى في الفتاوى وتعددتها. كما أن الفتاوى عبر وسائل جديدة كالقنوات الفضائية والأنترنيت يضاعف من هذه الظاهرة، لأنها تخلصهم من وساطات العلماء الرسميين. فمصادقية العالم، أصبحت محط شك خاصة من طرف بعض الحركات الإسلامية التي تعتبر أن العالم في الدول الإسلامية أصبح مرتبطا بالنظام السياسي يشرع عنه من خلال الفتاوى التي يقدمها وبالتالي من الضروري البحث عن بديل للمفتي الجديد.

- إنه تدين ذو طابع شمولي للدين على اعتبار أن الدين يجب أن يحكم جميع سلوك المسلم وتصرفاته الشخصية في أدق التفاصيل. تنطبق هذه الظاهرة ليس فقط على العالم الإسلامي بالنسبة للحركات السلفية خاصة والدعوية بصورة عامة، وإنما أيضا في الغرب. فهناك حركات دينية غربية مسيحية ويهودية تتمسك

بمثل هذه التفاصيل كشهود يهوا³⁵ Les témoins de Jéhovah بالنسبة للدين المسيحي والأرثوذكسيين اليهود.

- إنه تدين "علماني" لا بمعنى فصل الدين عن الدولة laïcité بالمفهوم الفرنسي³⁶، وإنما بمعنى سحب القداسة عن المؤسسات وإضفاء الطابع التمديني (sécularisation) بالمعنى الأنغلو ساسكسوني. وأن الدين أصبح متحررا من وقع المؤسسات الوسيطة والرسمية الدينية (العلماء في العالم الإسلامي والكنيسة في الغرب المسيحي).

فالعلمانية لم تستطع القضاء على الدين. فما زالت المعتقدات الدينية والروحية تؤثر في حياة الكثير من الأفراد والجماعات. إن أعدادا هائلة من الغربيين يؤمنون بالله، ولكنهم يمارسون هذا الإيمان بأساليب مختلفة خارج إطار المؤسسات الدينية التقليدية.

خلاصات:

من خلال ملاحظتنا لمظاهر التدين خاصة في المغرب الذي أخذناه كنموذج يمكن أن نخلص إلى بعض الخلاصات التي قد تعمق النقاش أكثر من اعتبارها حقائق جازمة:

- إن بعض أنماط التدين كزيارة الأضرحة وبعض الممارسات الخرافية متواجد لدى ساكنة البوادي أكثر منه لدى المدن. ويمس النساء أكثر من الرجال، إلا أنه يعرف تراجعا. وهكذا، نستنتج أن متغير السن والجنس والمجال الحضري ونسبة التعليم والثقافة لها تأثير في درجة التدين وطبيعته من حيث قربه بالدين.

- إن تدين الشباب هو أقل مقارنة بالفئات العمرية الأكبر سنا. استنتجنا هذا من خلال العديد من الاستثمارات التي قمنا بها. فالصحة الإسلامية في سنوات السبعينيات والثمانينيات التي أنتجت نسبة كبيرة من المتدينيين الشباب قد تراجعت في العقود الأخيرة من خلال تراجع حضور الشباب في المساجد وانتماؤهم للجماعات الإسلامية حسب ملاحظتنا وأجوبة المستجوبين.

وبخصوص علاقة التدين بمتغير الجنس تبين خلاصة الاستثمارات التي قمنا بها أن الإناث ليسوا أكثر تدينا من الذكور، بل العكس تدين الإناث هو أقل من تدين الذكور خاصة في بعض مؤشرات الصلاة، حيث تبين أن

³⁵- هي إحدى الطوائف المسيحية التي ظهرت سنة 1870 في بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية على يد تشارلز تاز راسل. وهي شبيهة بجماعة الدعوة والتبليغ في مسألة الخروج إلى الشارع ودعوة الناس إلى عقيدتهم بالحوار المباشر.

³⁶- فرنسا أسست للعلمانية منذ 1905 وأصبح إلزاميا في كل المجالات وخاصة في المدارس.

عددا كبيرا من الإناث لا يصلين بانتظام (حوالي 60 بالمائة للإناث وحوالي 40 للذكور فقط) وإن كن مقتنعات بفائدة ومكانة الصلاة من الناحية الدينية. وذلك لعدة اعتبارات منها ما هو أسري مرتبط بأعمال النساء البيئية، حيث يشغلن عن الصلاة، وأيضا ما تتطلبه الصلاة من انتظام خمس مرات في اليوم يتعذر عليهن الالتزام بها نظرا لتكرار النظافة الدائمة المطلوبة في كل صلاة. فطبيعة الأنثى تتطلب منها مزيدا من الوقت للدخول في الصلاة مقارنة مع الذكور. إن المغاربة كما هو الشأن في مختلف الدول الإسلامية أكثر تشبها بالدين الإسلامي، لكن تدينهم أقل من تصورهم لمكانة الدين في حياتهم. فبعض المراكز العالمية المتخصصة في سبر آراء المواطنين ومن ضمنها الآراء الدينية كمعهد غالوب يصنف المغرب ضمن الدول العشرة الأوائل من حيث أهمية الدين في حياة المواطنين اليومية.³⁷

وقد عبر 33 بالمائة من المغاربة على أن الشريعة الإسلامية يجب أن تكون المصدر الوحيد للتشريع و65 بالمائة على أنها مصدر أساسي، ولكن ليست الوحيدة ورفض 2 بالمائة كونها مصدرا للتشريع.

والواقع أن المتتبع للشأن الديني بصورة عامة، يلاحظ أنه من الصعب الجزم بمسألة تراجع تأثير الدين أو تقدمه بسبب تناقضات الواقع في العالم العربي والإسلامي. فبالرغم من أهمية الدين في حياة المسلمين ومظاهر التدين المختلفة والعلنية، إلا أن الواقع يشير في نفس الوقت إلى نوع من تراجع تأثير الدين بسبب تحديات التدين المفروضة من نقشي العديد من الظواهر، مثل نسبة المهرجانات الموسيقية بالمغرب مثلا وانتشار الأفلام والمسلسلات اللاأخلاقية في العديد من الدول العربية.

فضلا عن أن التحولات الاجتماعية أدت إلى تراجع القيم الدينية وبالتالي تؤثر على درجة التدين. فعلى سبيل المثال، فإن السن المتوسطي للزواج انتقل من 26 سنة إلى 30 بالنسبة للفتاة وانتقل من 25 إلى 35 بالنسبة للرجال في المغرب³⁸ مما يعني انتشار بعض مظاهر الفساد.

كما أن انتشار بعض مظاهر الشذوذ الجنسي من حيث الإعلان عنه وليس كظاهرة موجودة من شأنه التأثير على درجة التدين. فقد أصبح بعض المثليين لا يتورعون عن إعلان أنفسهم شواذا ويدافعون عن "حقوقهم المشروعة". فنحن أمام سرعتين بخصوص التدين: نوع من التدين بدأ يضعف وفي نفس الوقت تدين يريد أن يظهر نفسه بشكل علني وقوي. فمثلا الصلاة من خلال بعض مؤشرات كالمداومة عليها والصلاة في المسجد وحضور صلاة الصبح كلها تبين نوعا من التراجع، ولو أن كل المسلمين يعترفون بأهميتها الدينية.

³⁷ - انظر موقع غالوب gallup.com

³⁸ - انظر إحصائيات المنديبية السامية للتخطيط بالمغرب.

فالاستمارات التي قمنا به، تشير إلى تواضع نسبة المداومين عليها (حوالي 67% عبروا عن أنهم لا يصلون بانتظام). وبالأخص في صفوف النساء، حيث النسبة ترتفع، و عبر 30 بالمائة بأنهم يصلون بانتظام. وتتضاعف نسبة الذين لا يصلون في أوساط الشباب.

فإذا كانت هذه النسبة غير مرتفعة بالنسبة للصلاة الفردية، فإنها أقل في صلاة الجماعة وأقل في صلاة الصبح.

إلا أن مؤشر الصوم يعطينا تصورا آخر لدرجة التدين. ف شهر رمضان يعتبر من الشهور الأكثر قدسية لدى المسلمين والأكثر احتراما من بين مختلف الشعائر الإسلامية على اختلاف درجة تدين المسلم. فهناك من لا يحافظ على أداء الصلاة ولكنه يحافظ على صيامه، بل إن شهر رمضان يقود إلى المحافظة على شعائر أخرى كالصلاة مثلا، إذ تتقوى درجات التدين لدى المسلمين. ويظهر هذا جليا من خلال إقبال الأفراد ومن ضمنهم الشباب، على أداء الصلوات بانتظام وفي المساجد ويكثر الإقبال على صلاة التراويح وصلاة الفجر مقارنة بالشهور الأخرى والقطع مع بعض الممارسات المنافية للتدين الصحيح.

وتبين من خلال العديد من الاستمارات أن الحج من الشعائر التي يرغب في أدائها حتى المسلمين الأقل تدينا لما له من رمزية. ويظهر هذا في طلبات الحجيج التي ما فتئت تتزايد سنة بعد سنة؛ فهو يعطي مركزا اجتماعيا ودينيا للمسلم، حيث يلقب بالحاج أو الحاجة، وهو لقب عزيز على النفس ويبعث على التقدير والاحترام والثقة.

ولكن بسبب بعد المسافة وغلاء السفر، أصبح حكرا على الميسورين وبالتالي أصبح شعيرة لا يقوم بها إلا الأقلية بسبب الكوطة المفروضة على الحجيج المغاربة.³⁹

كما يشكل الحجاب خاصة في إطار مؤشر اللباس مظهرا حيا وعلنيا للتدين، وهو يترجم عدة دلالات قد تكون متزامنة في نفس الوقت أو تعبر عن إحداها فقط.

- دلالة إيمانية: يعبر عن درجة من التدين للمرأة تتناسب ودرجة إيمانها. ومن هذه الزاوية، يمكن أن نقيس درجة إيمانها بطريقة وضع الحجاب مثلا.

³⁹ - حدد نسبة الحجاج المغاربة سنة 2010 في 32 ألف حاج، بالرغم من تزايد عدد الطلبات. ولكن في هذه السنة 2013 تم تقليص عدد الحجاج إلى 26 ألف بسبب توسعة المسجد الحرام والأماكن المجاورة.

- دلالة أخلاقية: يمثل الحشمة والوقار وقيمة للمرأة المتحجبة التي تصبح أكثر قابلية للزواج في أعين الرجال.

- دلالة دينية وسياسية: يمثل انتماء لجماعة دينية والتزام ديني.

- دلالة اجتماعية زينية: يمثل مظهرا خارجيا للفتاة يضيف عليها بهاء وزينة تماشيا مع موجات الموضات. فهناك مثلا محلات تجارية في جميع أنحاء العالم الإسلامي متخصصة في بيع الحجاب.

- دلالة تقليد الأقران: يصبح مجرد إتباع لفتيات أخريات من نفس الحي أو نفس العائلة أو نفس المدرسة تأثرا بهن.

بخصوص الحجاب، تبين الملاحظة وبعض الإحصائيات أن أغلب المسلمين والمسلمات يرفضون منع الحجاب: حوالي 90 بالمائة في المغرب وفي أندونيسيا 95 بالمائة وفي الأردن 97 بالمائة حسب تقرير معهد بيو لسنة 2005.⁴⁰ فنحن أمام تمثّل إيجابي لهذا النوع من اللباس.

أما في الدول الغربية، فالعكس هو الصحيح، حيث إن حوالي 78 بالمائة في فرنسا تؤيد منع الحجاب وبريطانيا وألمانيا حوالي 54 بالمائة وهولاندا 51 بالمائة وإسبانيا 43 بالمائة وفي الولايات المتحدة.

إن التدين الذي يقره الدين الإسلامي من خاصيته، أنه يجمع بين النجاح الدنيوي والنجاح الآخروي. فالمسلم في إطار ممارساته الشعائرية والتزامه بالأخلاق الدينية يشكل بالنسبة إليه الخلاص نحو النجاح الآخروي (الحصول على الجنة)، ولكن أيضا السبيل نحو النجاح الدنيوي (حياة سعيدة ومطمئنة). إن هذا التدين إذن، هو تدين زهدي ولكن أيضا براغماتي عقلائي.

⁴⁰ - معهد بيو معهد متخصص في معرفة الرأي العالمي حول قضايا الإرهاب والموقف من الولايات المتحدة وقضايا الدين في العالم تأسس منذ 2002 سنة واحدة بعد أحداث 11 سبتمبر 2011

بيبليوغرافيا:

* المراجع بالعربية:

- ايكلمان ديل، **الإسلام في المغرب**، ترجمة محمد عفيف، دار توبقال للنشر، الجزء الأول، 1989. الجزء الثاني، 1991
- أونتوني غيدنز، وكاريل بيردسال، **علم الاجتماع**، ترجمة فائز الصباغ.
- باسكون بول، "الأساطير والمعتقدات بالمغرب"، ترجمة مصطفى المسناوي، **مجلة بيت الحكمة**، العدد الثالث، أكتوبر 1986
- بورديو بيبير، **أسئلة الاجتماع**، في **علم الاجتماع الانعكاسي**، ترجمة عبد الجليل الكور، دار توبقال للنشر، 1997
- فرويد سيغmond، **موسى والتوحيد**، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1982
- حمودي عبد الله، **الشيخ والمريد**، **النسق الثقافي للسلطة في المجتمعات العربية**، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر، 1999
- منديب عبد الغني، **الدين والمجتمع**، دراسة سوسيولوجية للتدين بالمغرب، أفريقيا الشرق، 2006
- ميسلان ميشيل، **علم الأديان مساهمة في التأسيس**، المركز الثقافي العربي، 2009
- ياسين عبد الجواد، **الدين والتدين**، التشريع والنص والاجتماع، التنوير، بيروت، 2012

* المراجع بالفرنسية والانجليزية:

- ARON Raymond, **Les étapes de la pensée sociologiques**, Paris, Galimard, 1967
- BASSTIDE R, **Eléments de la sociologie religieuse**, Armand Collin, 1935
- BATAILLE Georges, **Théorie de la religion**, Paris, Galimard, 1973
- BEN ELMOSTAFA Okacha, « Processus d'individuation », Revue **Prologues**, n 34, 2005, pp.34-39
- Bourquia Rahma, Ayyadi Mohamed, Rachik Hassan,
- HARRAS, **Les jeunes et les valeurs religieuses**, Casablanca, Editions EDDIF.
- CHARNAY G. Paul, **La sociologie de l'islam**, Paris, Ed Sinsibad, 1977
- CHEBEL Malek, **L'imaginaire arabo-musulman**, Paris, PUF, 1993
- DOUTTE Edmond, **Magie et religion en Afrique du Nord**, Maisonneuve, p. Geuther, S.A.Paris, 1984, p. 15

- ELAYDI Mohammed, RACHIK Hassan et TOZY Mohamed, **L'islam au quotidien**, Revue Religion et société (dirigé par Mohamed SGHIR JANJAR), Editions Prologues, 2007
- GEERTZ Clifford, **Islam observed, Religions development in Morocco and Indonesia**, University of Chicago press, 1971
- GELNER Ernest, **Saints of Atlas**, Weidenfeld and Nickolson, London, 1969
- MALINOWSKI. B, **Magic, science and religion and other essays**, Giencoe III, The Free Press, 1984
- PASCON Paul, **Le Haouz de Marrakech**, Editions marocaines et internationales, 1977
- ROY Olivier, **La sainte ignorance: le temps de la religion sans culture**, Le Seuil, 2008
- ROY olivier, **L'islam mondialisé**, Le Seuil, 2002
- ROY olivier, La « La crise de l'Etat laïque et les nouvelles formes de religiosité », -
- WEBER Max, **L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme**, Plon, 1964



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com